

تفصيح الامتحان الوطني الدورة الاستدراكية 2016 (منهجية السؤال)

هل يتعارض الواجب مع الحرية؟

الجدير بالذكر أن الانسان كائن أخلاقي ، و الفعل الإنساني يكتسي صبغة أخلاقية حينما يكون مقصده هو تحقيق واجب أخلاقي ما ، و الواجبات كأوامر أخلاقية ملزمة لكل الناس تتطلب استجابة و هي متنوعة : واجبات عائلية ، واجبات عرفية ، واجبات مهنية ، واجبات وطنية ، واجبات إنسانية ؛ إنه لأمر مطلق لكنه ليس قاسيا إلى حد التهديد بإثارة الرعب لدى الفرد ، و ارتباطه وثيق بمفهوم الحرية الذي يحيل على البعد من دائرة الاكراهات في الحياة الذاتية (حق كوني) ، كما يعتبر شكل من أشكال العلاقات الإنسانية ؛ في نفس السياق يتلاءم السؤال الإشكالي المطروح ، إذ يتخذ من مجزوءة الأخلاق جذوره مبرزاً التقابل بين الواجب والحرية ، بصيغة أخرى يفتح باب النقاش حول محور الواجب و الإكراه ، و عن كل هذا تتولد جملة من التساؤلات التي يمكن إدراجها على النحو التالي :

- هل يصدر الواجب عن إرادة حرة أم هو فعل تحكمه ضرورة و إكراه ؟
- هل يتأسس عن التزام (مرغوب فيه عن طيب خاطر) أم عن إلزام (شرطي مرغم القيام به) ؟
- هل للواجب علاقة بالذات أم بالآخر ؟

إن الواجب لا يغدو سوى ان يكون أمراً قطعياً خالصاً ، فهو يشكل استجابة لنداء العقل (وازع داخلي) الذي يحاول جاهداً بأوامره الأخلاقية إخضاع الإرادة و توجيهها نحو ما يعتبره خيراً ، و كان للفيلسوف النقدي الألماني كانط الفضل الكبير في التمييز بين نوعين من الأوامر الأخلاقية المشكلة للواجب ، و يشير النوع الأول إلى الأوامر الأخلاقية الشرطية (وسائل لتحقيق بعض الأهداف) تعبر عن ضرورات عملية لبعض الأفعال التي لا ينظر إليها في ذاتها ، اي ان الفعل الأخلاقي فيها يكون مقيداً او مشروطاً بتحقيق نتيجة او منفعة ، أما النوع الثاني فيخص الأوامر الأخلاقية القطعية او المطلقة (شمولية *universalité*) لها بدهاء مباشرة و ينظر إليها في ذاتها ليس طلباً لمنفعة ما ، بل احتراماً للواجب ذاته ؛ بهذا المعنى يتبين أنه يستحيل ان يوجد الواجب في استقلال عن مبدأ الإرادة العاقلة و الخيرة التي ترقى بالواجب من مستوى الإلزام و الإكراه إلى مستوى الالتزام العقلي الحر .

(Chaque homme trouve en sa raison l'idée du devoir et tremble lorsqu'il entend sa voix d'airain : voix avec un ton particulier, grave, pour peu que s'éveillent en lui des penchants qui lui donnent la tentation de l'enfreindre)

إلا ان الإرادة لا تخضع دوماً لأوامر العقل، لذلك يمارس عليها هذا الأخير نوعاً من الإكراه، إلا أنه إكراه حر؛ مادامت الإرادة تخضع للقانون الأخلاقي الصادر عن العقل (تتخلى جزئياً عن الحرية) من

أجل مقاومة التأثير الذي تمارسه الميولات الغريزية من جهة، ومن أجل المحافظة على كرامة الإنسان واحترامه من جهة أخرى ، لذلك يتصرف الانسان دائما كمشرعا وفردا في الآن نفسه في مملكة الإرادة .

من خلال ما سبق يمكن أن نستنتج أن نظرية الواجب الأخلاقي عند كانط تقوم على تصور الواجب في إطار عقلي مجرد و ذاتي يجعل من الواجب ضرورة مطلقة غير مرتبطة لا بإكراه خارجي و لا بمصلحة نفعية .

(Deux choses me remplissent le cœur d'une admiration et d'une vénération, toujours nouvelles et toujours croissantes, à mesure que la réflexion s'y attache et s'y applique : le ciel étoilé au-dessus de moi et la loi morale en moi)

يتفق عالم الاجتماع الفرنسي دوركهايم مع كانط في أن الواجب الأخلاقي يتسم أساسا بكونه إلزاما (ضرورة تفرض نفسها) ، لكنه يعالج الفكرة من منظور سوسولوجي (اجتماعي) وضعي يربط فيه الواجب بما هو مرغوب في القيام به (ينم عن اقتناع) ، حيث يستمد مضمونه و قوته الإلزامية من الضمير الجمعي ، الذي تكون له سلطة على الأفراد و يفرض عليها أوامر أخلاقية تحمل طابع الإلزام و الإكراه ، حيث ان الخروج عنها يعرض صاحبه لعقاب مادي او معنوي من طرف المجتمع .

" ان نزوعنا و أملنا في القيام به - الفعل- لا يتم دون عناء و دون مجهود و حتى عندما ننجز فعلا أخلاقيا بنوع من الحماس فنحن نشعر و كأننا خرجنا من ذواتنا و بأننا سيطرنا على أنفسنا و بأننا نرتفع إلى مستوى فوق كينونتنا الطبيعية فانجاز هذا الفعل لا يتم دون توتر و دون نوع من الإكراه الداخلي الذي نمارسه على أنفسنا " .

و ينظر دوركهايم إلى الواجب من جهة كونه ملزما (obligatoire)، أو يمارس علينا إكراها سواء كان داخليا (الميل العقلي) أو إكراها خارجيا (الضغط الاجتماعي)، بل أن الواجب لا بد أن يتضمن ميلا وجدانيا أو ذوقيا .

إن كان الفرد يمثل للواجبات الأخلاقية فلأنه يرغب في ذلك و يجد متعة أو لذة في ذلك (désir) من المستحيل نفسيا أن نسعى نحو تحقيق هدف نجد في نفوسنا فتورا تجاهه ، بحيث لا يبدو لنا خيرا أو طيبا، أو لا يحرك فينا أي إحساس" ؛ و هاتين السمتين أساسيتين – الإلزامية و المرغوبية - إذ أن الدليل على ذلك أن الفرد حتى و لو كان يدرك عقليا قيمة واجب قول الحقيقة، فإنه قد لا يقول الحقيقة لأنه لا يجد أي متعة في ذلك ، و على نفس الخط ينبثق مثلا آخرا ، لذلك الذي يهب في زمن الحرب بكل حمية وحماس للتطوع في الجيش امتثالا لواجب الوطنية ، و كل ذلك مرده إلى التربية و التنشئة الاجتماعية (socialisation) ؛ و من تم يصبح الواجب الأخلاقي ليس فقط شيئا ملزما، وإنما هو أيضا شيء مرغوب فيه .

يرى التيار التجريبي بقيادة دافيد هيوم أن الواجبات الأخلاقية تنقسم إلى نوعين : نوع أول يُمثّل كل الواجبات التي تدفع إليها الغريزة الطبيعية أو الميل المباشر، وهو نوع لا يبدو فيه أي شعور بالإلزام أو أي اعتبار لمنفعة عامة أو خاصة (مثلا: حب الأطفال، شكر المحسنين، العطف على المعوزين) ؛ ونوع ثانٍ يصدر فيه الواجب عن إلزام (الإحساس بالإلزام) يرتبط بضرورات للمحافظة على المجتمع

البشري ، حيث ان التخلي عنه تترتب عنه استحالة استمرار الحياة الاجتماعية للإنسان ، و ما إلى ذلك من أضرار ناجمة عن الانسياق وراء المصلحة الشخصية (حب الذات و حب التملك) وهكذا، فالإكراه الموجود في الواجب (أحكامه) يرجع إما إلى ضرورة طبيعية (غريزية) ، وإما إلى ضرورة اجتماعية (عقلية) ، و ذلك من أجل التقليل من الميل و الغريزة (القيام برقابة) و تحقيق المنفعة للجميع .
والتجربة وحدها هي التي تبين لنا مدى ما نحنيه من منفعة أو فائدة إذا ما تقيدنا بأوامر الواجب .

إن فن هل يمكن الاكتفاء بالزامية الواجب (ضرورة) أو ارتباطه بمتعة داخلية كحل نهائي لاشكائنا ؟

إن الواجب ليس إكراها خارجيا ، لان الأخلاق ليست إلزام الشخص بما لا يستطيع على اعتبار ان في ذلك ظلم ، و الظلم متعارض مع الأخلاق . فالواجب هو ما باستطاعة الشخص ، لأنه ليس شعورا بضغط بل بالقدرة على فعل عظيم هذا ما اقره الفيلسوف غوبو مبرزا أن الفعل الأخلاقي لا يجب أن يصدر عن إلزام و لا عن خوف من أي جزاء أو عقاب. إنما هو التزام (engagement) و فعلا تأسيسيا لمسار الحياة الذي لا ينتهي، و لغايات حددتها الطبيعة الإنسانية كونها فاعلية مطلقة نحو الحياة. لكن الواجب الأخلاقي من وجهة النظر الطبيعية هاته التي ليس فيها شيء غيبي، يرتد إلى القانون الطبيعي الشامل ، فمصدره هو الشعور الفياض " بأننا عشنا و أننا أدينا مهمتنا ... و سوف تستمر الحياة بعدنا، من دوننا، و لكن لعل لنا بعض الفضل في هذا الاستمرار " .

عن كل هذا يتحدد الواجب بوصفه تعبير عن القدرة التي زودت بها الحياة الإنسان ، ودوره يتجلى في تصريف هذه القدرة وفيما ينبغي فعله (نشاط إنساني فعال) للمضي قدما في الحياة " إن الحياة لا تستطيع ان تبقى بدون أن تنتشر " مثلما " أن النبتة لا تستطيع أن تمتنع عن الازدهار " .

خلاصة القول أنه ما دام الانسان كائنا عاقلا و واعيا ، فهو يملك حقيقة من الواجبات منها ما هو ملزم و منها ما هو عقلي إرادي ، و قيمتها تكمن بالأساس في تنظيم حياة الدولة او المجتمع (تبعاً لقواعد و أبعاد أخلاقية) و تحقيق نوع من العدالة و التوازن بعيدا عن الحرية الجائرة و التصرف المستهتر .

من اعداد الباحث : اشرف مطهر